منزلة الدليل الكلامي عند الشافعي بين النظرية والتطبيق

İbrahim AL-DIBOU* /ابراهيم الديبو

The Kalam Argument Form The Point of Theoretical and Practical According to al-Shafii

Citation/©: al-Dibou, İbrahim, The Kalam Argument Form The Point of Theoretical and Practical According to al-Shafii, Artuklu Akademi, 2017/4 (2), 161-173.

Abstract: This study attempts to provide answers to multiple questions relating to Imam Shafi'i's stand on the theological proof in general. This is also known as the theoretical bases on which Imam Shafi'i predicated his criticism of the theological proof, and the alternative proofs he introduced. The study concludes that Shafi'i's criticism of the theological proof intended for the theological argument that is ambiguous and argumentative, and that Imam Shafi'i did introduce a new structure for the theological proof, which is based on well-established and Fiqh-related principles and parameters.

Key Words: Kalam, Usul al-fiqh, Principles of the Religion, Imam Shafi'i.

İmam Şâfii'ye göre Teorik ve Pratik Açıdan Kelâmî Delilin Yeri

Citation/©: al-Dibou, İbrahim, İmam Şâfii'ye göre Teorik ve Pratik Açıdan Kelami Delilin Yeri, Artuklu Akademi, 2017/4 (2), 161-173.

Öz: Bu çalışmada İmam Şâfii'nin kelam alimlerinin itikadi konularda hangi delilleri kullandığı konusu ele alınmıştır. Konu işlenirken İmam Şâfii'nin kelamcıları delillerini eleştirirken hangi delillere dayandığı, kelami delilin haricinde herhangi bir delil kullanıp kullanmadığı, kelami delilin hepsini toptan reddedip reddetmediği, yoksa bu delilleri usul açısından mı eleştirdiği, kelami delileri teorikte eleştirmesine rağmen kendisinin uygulamada buna uyup uymadığı sorularına yanıtlar aranmıştır. Çalışma iki bölüm halinde işlenmiş olup ilk bölümde İmam Şâfii'nin kelami delili teorikte nasıl ele aldığı; ikinci bölümde ise uygulamada konuyu nasıl işlediğine yer verilmiştir.

Anahtar Kelimeler: Kelam İlmi, Fıkıh Usulü, Usûlü'd-Dîn, İmam Şâfii.

ملخص:
يعدُّ الإمام الشافعي من أكثر العلماء المتقدمين شهرةً في نقدِ الدليلِ الكلامي، كما رويتْ عنهُ عباراتٌ شديدة الطعن في مناهج المتكلمين وأساليبهم الجدلية، وقد تناولتُ في هذا البحث تلك

* أستاذ مشارك في كلية العلوم الإسلامية في جامعة آرتقلو – ماردين.
Doç. Dr., Mardin Artuklu Üniversitesi İslami İlimler Fakültesi Öğretim Üyesi.

Gönderim Tarihi: 13.03.2017, Kabul Tarihi: 22.04.2017

العبارات وفقَ سياقاتها التاريخية محاولاً الإجابة عن عدَّة أسئلة ترسم ملامح منهج الشافعي وموقفه من الدليل الكلامي؛ ومن الأسئلة التي طرحها البحث: ما هي الأسس النظرية التي استند إليها الشافعي في نقده للدليل الكلامي، وهل قدَّم بديلاً عن هذا الدليل، وهل كان نقده موجهاً للدليل بجملته أم للصياغة الكلامية البعيدة عن الوضوح والمرتبطة بالجدل والمراء وحبّ التغلب، وهل التزمَ بموقف واضح على المستويين النظري والتطبيقي؟ وقد تناولت تلك الأسئلة بالبيان والشرح والإجابة من خلال مبحثين يشتملان على موقف الشافعي، المبحث الأول: الموقف النظري، والمبحث الثاني: الموقف التطبيقي.
كلمات مفتاحية: علم الكلام- أصول الفقه- أصول الدين- الإمام الشافعي.

المقدمة:

من المؤكد أنّ الخلافَ حولَ منزلةِ الدليلِ الكلامي يتفرَّع عن الخلاف حول مشروعية علم الكلام، ذلك الخلافُ الذي أفرز مدارس واتجاهات مختلفة نظر أصحابها إلى علم الكلام وما يتضمنه من أساليب وصيغ وصور استدلال ونظراتٍ مختلفة، وبرزَ تيار كبير ترتبط جذوره بعلماء من السلف والمتقدمين من علماء الفقه والحديث دعوا إلى هجر علم الكلام وأدلة المتكلمين استغناء بأدلة القرآن والسنة، وهذا يبرز لنا سبباً مهماً من أسباب الهجوم على مناهج المتكلمين وطرق صياغة أدلتهم وهو المقابلة بين علم الكلام وعلوم الشريعة، وبين الأدلة القرآنية والأدلة الكلامية وهي مقابلة تجعل أي باحث -يقرّ بها- ينحازُ مباشرة إلى علوم الشريعة وأدلة القرآن والسنة؛ لظنه أنَّ الدليل الكلامي بديل عن الدليل الشرعي، مع أنَّ دراسات المتكلمين ومجال بحوثهم وطرق الاستدلال عندهم كل ذلك يؤكد على أنَّ الدليل الكلامي ليس بديلاً عن الدليل الشرعي وإنما له مجاله الخاص في الردّ على الشبهات والشكوك وتشويش المبتدعة، فعلماءُ الكلام كانوا يواجهون خصومًا لا يستجيبون إلا لأدلةِ العقل وبراهينه، وقد كان من هؤلاء يهود ونصارى ومجوس وصابئة وزنادقة، وكان منهم من يشترط على علماء الكلام ألا يستخدموا في الجدال والمناظرة إلا الأدلة العقلية [1]، فاضطروا لصياغةِ أدلتهم بأسلوب عقلي جدلي يتسم بالتشقيق لمواجهة المخالفين، لذلك تميز الدليل الكلامي بسمات معينة من حيث مادته وأسلوبه وغايته نلمسها في أغلب المؤلفات الكلامية وهي تعرِّف بحقيقته وبمنهجه:

- مادة الدليل الكلامي: مسلَّمات الخصوم والقضايا التي تلقى القبول عندهم بصرف النظر عن قيمتها الذاتية.
- أسلوبه: يتسم بالتشقيق وتعديد الاحتمالات وكثرة الفروض والحجج المتوالية وقد تغني عنها حجة واحدة حاسمة.
- غايته: هي – في الغالب- التغلب على الخصم بإثبات الدعوى عن طريق إفساد الحجة المعارضة لها بدلاً من إثباتها بطريق مباشر[2].

[1] راجع : الدكتور عبد الحميد مدكور والدكتور السيد رزق الحجر : دراسات في علم الكلام (بالاشتراك) ، الناشر: دار الثقافة العربية، مصر 1999م، ص 9.

[2] راجع: د.حسن الشافعي: المدخل إلى دراسة علم الكلام ، مكتبة وهبة- مصر، الطبعة الثانية 1990م، ص 190،
Hasan; Türkmen, "Hüsâmüddîn es-Siğnâkî'nin 'et-Tesdîd fî Şerhi't-Temhîd' İsimli Eseri Bağlamında Kelâmullahın Mahiyetine Yönelik Yaklaşımı", *A. S.A.D.*, sy. 5/44, 2017: 318.

ويعدُّ الإمام الشافعي من أشهر العلماء الذين تنسبُ لهم أقوال تقللُ من قيمةِ الدليل الكلامي وتوجهُ الطعن إلى مناهج المتكلمين وأساليبهم الجدلية، وسأحاول في هذه الدراسةِ الإجابةَ عن عدَّة أسئلة تبين موقفَ الشافعي من الدليل الكلامي لنعرفَ الأسسَ النظريةَ التي استند إليها في نقده للدليل الكلامي، وهل قدَّم بديلاً عن هذا الدليل، وهل كان نقده موجهاً للدليل بجملته أم للصياغة الكلامية البعيدة عن الوضوح والمرتبطة بالجدل والمراء وحب التغلب، وهل التزم بموقف واضح على المستويين النظري والتطبيقي؟

سأحاول توضيح ذلك من خلال كتبه بالإضافة إلى كتب المناقب والتاريخ التي أبرزت موقفه بشكل أوضح، وسأعرض ذلك في مبحثين:

المبحث الأول: الموقف النظري

المبحث الثاني: الموقف التطبيقي

المبحث الأول: الموقف النظري:

الشافعي إمامٌ في الحجة والبيان ومؤسس لعلم الأصول وضوابط الفهم للنص الشرعي[3]، وكان حريصاً على إبطال البدع وإلزام المبتدعة بضعف حججهم وسوء طريقتهم وفساد مناهجهم، وقد تناول أدلة المتكلمين المعاصرين له بالنقد المتصل بالشكل والمضمون، ثم قدَّم نماذج تطبيقية للدليل الصحيح من خلال معارضة المخالفين والرد على أدلتهم، وإبراز مواضع الخلل في صياغتهم للدليل الكلامي، وكل ذلك سنوضحه من خلال موضوع البحث وهو «منزلة الدليل الكلامي عند الشافعي بين النظرية والتطبيق» لذلك سأجمل الكلام أولاً على أهم المآخذ والطعون التي وجهها للدليل الكلامي وهي تبرز الموقف النظري له:

أولاً: نقد الدليل الكلامي المرتبط بالنشأة التاريخية:

المراد بنقد الدليل الكلامي المرتبط بالنشأة التاريخية هو بيان موقف الشافعي من الأدلة التي استخدمها المبتدعة المعاصرون له، فلا يمكن فهم موقفه من الدليل الكلامي بمنأى عن المرحلة التاريخية التي عاش فيها الشافعي، فقد شهد العصر الذي عاش فيه ظهور تيارات وأفكار، وشخصيات لها مواقف معروفة ومشهورة من الدليل الشرعي ومن قضايا العقيدة، وكان للمعتزلة المعاصرين للشافعي دور بارز في صياغة الدليل الكلامي والإعلاء من منزلته، فهم أصحاب نزعة عقلية تقوم على المبالغة في تقدير الدليل الكلامي على حساب الدليل السمعي بالإضافة إلى استخدامهم لمناهج فلسفية ومنطقية أثرت في صياغة الدليل الكلامي، وقد سرى ذلك الأثر- بعد ذلك- لعدد كبير من متأخري المدارس الكلامية الأخرى كالأشاعرة والماتريدية فاستخدموا الدليل الكلامي وصاغوه صياغة لا تراعي قواعد اللغة العربية ولا تستقيم مع أصول النظر الإسلامي وأساليب الاستدلال القرآني القريبة من العقل والفطرة، ولعلَّ ذلك

[3] راجع: عبد الغني الدقر: الإمام الشافعي، دار القلم-دمشق ، الطبعة السابعة 2005م، ص227.

يوضح أهم أسباب الاختلاف بين الدليل الكلامي والدليل السمعي ويوضح لنا سبب النقد الذي وجهه الشافعي للدليل الكلامي، روى البيهقي بإسناد حسن عن يونس بن عبد الأعلى قال: أتيت الشافعي بعد ما ناظر في الأصول مع حفص الفرد[4] فقال: غبتَ عنا يا أبا موسى ولقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما توهمته قط « لأن يلقى الله العبدُ بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يبتليه الله بالكلام «[5]، وهي عبارات تحمل عدة دلالات ويمكن أن تفهم فهماً مختلفاً إذا نزعت من سياقها وعصرها وظروف قائلها، إلا أن العصر الذي عاش فيه الشافعي يبين مرادها ويؤكد صلتها بأهل البدع وطرق الاستدلال عندهم، فالشافعي عاصر حفصاً الفرد وناقشه واطلع منه على أساليب عقيمة في الجدل، كما عاصر رأساً من رؤوس المبتدعة وهو بشر المريسي وحاوره في قضايا كثيرة، لذلك حذَّر من علم الكلام وأدلة المتكلمين، لأنهما – بالنظر لتاريخ نشأة العلم-الأداة التي يستعملها أهل البدع في نقد الأدلة الشرعية وتوهين مكانتها، فنقد الدليل الشرعي قد يحمل صاحبه على الكفر والاعتقادات الباطلة، فالابتلاء بالمعصية أهون من الابتلاء بالكلام كما يرى الشافعي.

ثانياً: نقد الدليل الكلامي بصيغته الفنية المعقدة التي تعتمد على الجدل العقيم:

يغلبُ على الدليل الكلامي اعتماده على مصطلحات فنية معقدة ومناهج استدلال دقيقة يصعب فهمها، ولعل ذلك أضاف سبباً آخر لموقف الشافعي من أدلة الكلام، فكان يرى أن الدليل الكلامي فيه صنعة جدل ويؤدي إلى الملل وتنفير النفوس من أهل الكلام، وقد سمي علم الكلام بذلك-في أحد وجوهه- لاشتماله على كلام وجدل ليس تحته عمل، وقد يسفر عن خواء وعقم بائسين، روى البيهقي بسنده عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي وهو نازل من الدرجة وقوم يتكلمون في الكلام فصاح بهم « إمَّا أن تجاورونا بخير وإما أن تقوموا عنا» [6]، فالشافعي يرى أن المتكلم يستفز خصمه بأسلوبه وأنه ينفر النفوس بطريقته الجدلية المبنية على حب الغلبة، لذلك صاح بهم وطلب منهم أن يقولوا خيراً أو أن يقوموا، ويؤكد ذلك المعنى قول الغزالي: « فأما الكلام المحرَّر على رسم المتكلمين فإنه يشعر نفوس المستمعين بأنَّ فيه صنعة جدل يعجز عنه العامي لا لكونه حقاً في نفسه، وربما يكون ذلك سبباً لرسوخ العناد في قلبه « .[7]

ثالثاً: الدليل الكلامي يؤدي إلى هجر الدليل الشرعي:

يرى الشافعي أنَّ أدلة القرآن والسنة هي أوضح الأدلة وأقواها، وأنَّ المتكلم الذي يسعى لتحرير الدليل الكلامي يترك الدليل القوي إلى الدليل الضعيف والدليل القريب إلى الدليل البعيد،

4 راجع: اللالكائي: أصول اعتقاد أهل السنة ، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان ، دار طيبة للنشر والتوزيع 2/252- 254 .

5 رواته ثقات إلا محمد بن عبد الله العمري فهو مقبول (راجع: تقريب التهذيب ص 467 ، 613) (مناقب الشافعي ص 460) .

6 إسناده ضعيف، ففيه راو مجهول الحال وهو أبو أحمد بن أبي الحسن وقد روى عنه الحاكم، (راجع: السيوطي: صون المنطق والكلام ، مطبعة السعادة ، بجوار محافظة مصر ، الطبعة الأولى ، د.ت، ص 18-19 ، 30-31، 65).

7 الغزالي: فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص 99.

لذلك نقل عنه القول بتعزير أهل الكلام والأمر بضربهم وعلّل ذلك بأنهم تركوا الكتاب والسنة، روى البيهقي بإسناده عن أبي ثور والحسين بن علي الكرابيسي- أنهما قالا: سمعنا الشافعي يقول: « حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويحملوا على الإبل ويطاف بهم في العشائر والقبائل ، وينادى عليهم ، هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام « [8]، فالشافعي حريص على الإعلاء من مكانة الدليل الشرعي المستند إلى القرآن والسنة أو المستنبط منهما فكان يرى أن صبغ الدليل بصبغة كلامية يضعف قوته ويؤثر على قدرته في الإلزام وإثبات المراد من إيراده.

رابعاً: الدليل الكلامي لا يهدي إلى الصواب بل يجمع بين المختلفات:

إنَّ الجدل بين المتكلمين واختلافهم في مسائل الكلام يجعل كل متكلم يصوغ أدلته صياغة جدلية ترد على المخالف فيقر كل منهم بخطأ صاحبه لذلك قال الشافعي « الكلام يلعن أهل الكلام»[9] وهي عبارة قوية الدلالة على التنفير من الكلام، بل إنّ المتكلم- كما يرى الشافعي- لا يهديه كلامه إلى الصواب لما تتضمنه الصياغة الكلامية من خلل في ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج، روى البيهقي عن أبي ثور قال: سمعت الشافعي يقول:» من تردَّى في الكلام لم يفلح «[10]، أي لم يفلح في الوصول إلى الحق والصواب، فالشافعي على الجانب النظري شديد التحذير من التردي في أساليب المتكلمين وطرقهم الاستدلالية التي تحمل المتناقضات وتجمع بين المختلفات وتبعد المتكلم عن جادة الحق والصواب، وقد نقلت عنه عبارات كثيرة فيها تحذير من علم الكلام لما رآه وخبره منه؛ نقل ابن أبي حاتم والإمام الرازي عن الشافعي قوله: « لو علم الناس ما يحل بالعالم بالكلام من العذاب لفروا منه كما يفرُّ الإنسان من الأسد «[11]، وقال: « مذهبي في أهل الكلام تقنيع رؤوسهم بالسياط وتشريدهم في البلاد»[12] فهذه الأحكام القاسية من الشافعي على أهل الكلام وأدلتهم والتحذير من طرقهم بالنظر إلى كثرة المفاسد في أدلة المتكلمين.

خامساً: النظر إلى الغاية من صياغة الدليل الكلامي:

لم يكن موقف الشافعي من الدليل الكلامي مبنياً على شكل الدليل وصياغته المنطقية فقط؛ بل كان ينظر إلى الأمر الأهم وهو الغاية من إيراد الدليل؛ فالدليل الكلامي أداة يستخدمها

---

8 البيهقي: مناقب الشافعي ص 462. إسناده ضعيف لضعف أبي عبد الرحمن السلمي المتوفى 412 ، وهو محمد بن الحسين بن موسى من الصوفية كان ضعيفاً في رواية الأحاديث (راجع: البداية والنهاية لابن كثير ، تحقيق د.أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث- القاهرة 2002م، 12/14).

9 راجع: البيهقي : مناقب الشافعي ص 262 رواته أئمة ثقات إلا أبو جعفر الأصبهاني لم أجد له ترجمة .(تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني، تحقيق الشيخ محمد عوامة ، دار الرشيد- سوريا، الطبعة الرابعة 1997م، ص 89، 216، 404) وقد جاءت الرواية عن الشافعي في عدة كتب منها: ابن أبي حاتم الرازي : آداب الشافعي ، تحقيق : عبد الغني عبد الخالق ، مكتبة التراث الإسلامي ، حلب ، سوريا د.ت ،281-981 وفخر الدين الرازي : مناقب الشافعي ، تحقيق : الدكتور /أحمد حجازي السقا ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى 1413هـ-1993م ، ص96-95 .

10 راجع: البيهقي : مناقب الشافعي ص 262 .

11 راجع: ابن أبي حاتم الرازي : آداب الشافعي 189-182 ، و فخر الدين الرازي : مناقب الشافعي ص96-95 .

12 راجع: ابن أبي حاتم الرازي : آداب الشافعي 189-182 ، و فخر الدين الرازي : مناقب الشافعي ص96-95 .

المتكلم ليصوغ فيها أفكاره ومعارفه التي أخذها عن طريق العقل أو النقل كي يثبت دعواه أو يدفع بها هجوم خصمه أو يبين اللوازم الفاسدة المترتبة على مقالة الخصم[13]، وعندما يسرف في صياغته الكلامية يغفل عن الغاية التي يصوغ الدليل من أجلها فيقع في محظورات كثيرة من أشدها تكفير المخالف والطعن في إيمانه، روى البيهقي بإسناده عن المزني قال: « كنَّا على باب الشافعي نتناظر في الكلام، فخرج إلينا وسمع بعض ما كنا فيه، فرجع عنا وما خرج إلينا إلا بعد سبعة أيام ، ثم خرج وقال : ما منعني من الخروج إليكم إلا أني سمعتكم تتناظرون في الكلام، أتظنون أني لا أحسنه ؟ لقد دخلت فيه حتى بلغت مبلغاً ، إلا أنَّ الكلام لا غاية له، تناظروا في شيء إن أخطأتم فيه ، يقال لكم: أخطأتم ، لا تناظروا في شيء إن أخطأتم فيه ، يقال : كفرتم » [14].

فالشافعي إذاً يرى أنَّ الدليلَ الكلامي له مفاسد كثيرة منها أن المتكلم قد لا يسعى إلى غاية بل هو مبني على الجدل والمراء وحب الغلبة، بالإضافة إلى أمر خطير نبه عليه في النص السابق وهو أن الدليل الكلامي يحمل كل خصم على رمي خصمه بالكفر والضلال، ويحمل المتكلم على الطعن في إيمان عوام الناس ومن لا يحسنون الصياغة الكلامية، وقد ذكر الغزالي معنى قريباً مما ذكره الشافعي فقال في رده على المتكلمين الذين قصروا الإيمان على طائفة من المتكلمين: من أشدِّ الناس غلواً وإسرافاً طائفة من المتكلمين كفَّروا عوام المسلمين، وزعموا أنَّ من لم يعرف الكلام بمعرفتهم ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتهم الشرعية التي حرروها فهو كافر، وقال عنهم: هؤلاء ضيقوا رحمة الله تعالى الواسعة على عباده أولاً ، وجعلوا الجنة وقفاً على شرذمة يسيرة من المتكلِّمين [15].

المبحث الثاني: الجانب التطبيقي:

ذكرنا الموقف النظري للإمام الشافعي وهو موقف واضح يقوم على نقد أساليب الكلام وطرق صياغة الدليل الكلامي والتنبيه على الغاية التي يريدها المتكلم من كلامه، وهي بجملتها تؤكد لنا أن الشافعي يسعى إلى نقد الدليل الكلامي من حيث الصياغة ومن حيث الغاية، فليس نقده للدليل الكلامي شكلياً فقط؛ بل كان ينظر إلى الغاية أيضاً، لذلك نجد أنه سلك مسلكاً جديداً تجاوز فيه تلك المآخذ المتعلقة بالشكل والمضمون، وجعل الدليل الكلامي مغيّا أي له غاية شريفة، فقدَّم لنا نماذج تطبيقية للدليل الكلامي كما يريده هو وفق صياغة لها أصولها وضوابطها مما يجعلها قريبة من الفهم والإقناع، ولها صلة بالأدلة الفقهية والأصولية التي أسهم إسهامات كبيرة في وضع أصولها، وقد ساعده على ذلك ما يمتلكه من قدرة على البيان والاحتجاج، فشخصيته العلمية وقدراته المتميزة جعلت منه عالماً مجتهداً وعلماً مبرزاً في العلوم النقلية

13 راجع:د.حسن الشافعي: المدخل إلى دراسة علم الكلام ص 173 .

14 البيهقي : مناقب الشافعي ص 458-459 ، وراجع: الرازي: مناقب الإمام الشافعي ص 100، وأبو عبد الله هو الحاكم النيسابوري ت 405 وهو ثقة حافظ ، والحسن بن يعقوب ت342 وهو ثقة ، ومحمد بن روح مجهول الحال،(راجع: البداية والنهاية لابن كثير 11/381-382.

15 الغزالي: فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص 99 .

والعقلية، اطلع على علم الكلام وأدلة المتكلمين وتنبه إلى مواضع الخلل فيها فدقق فيها وصحح أساليبها، لذلك لم يكن نقده بعيداً عن واقع المتكلمين، بل يقوم على اطلاع وفهم ونقد من خبير بحقيقة الكلام وطرق الاستدلال، ودليل ذلك ما ذكره البيهقي قال: قرأت في كتاب أبي نعيم الأصبهاني حكاية عن الصاحب بن عباد أنه ذكر بإسناده عن إسحاق أنه قال: قال لي أبي: « كلّم الشافعي يوماً بعض الفقهاء فدقَّق عليه وحقق وضيق، فقيل له : يا أبا عبد الله ، هذا لأهل الكلام، لا لأهل الحلال والحرام ، فقال : أحكمنا ذاك قبل هذا « [16]. فهو إذاً أتقن الكلام قبل علم الفقه، ولكنه لم يتأثر بالمناهج الفاسدة في الاستدلال، ولم تدخله شبهات الفلاسفة ولا تأثيرات المنطق الأرسطي، لذلك نجد أن صياغته للأدلة كانت بعيدة عن التأثيرات الفلسفية أو الصياغات المنطقية المركبة والموغلة في الجدل وهي قريبة من صيغ الفقهاء والأصوليين، ويمكن أن نوضح ذلك من خلال القواعد العامة التي كان يراعيها في جانب صياغة الأدلة والاستدلال والرد على المخالفين، وهي بجملتها بديل عن الدليل الذي نقده، لذلك يمكن لنا أن نلخص أهم معالم الدليل الكلامي عند الشافعي في الآتي:

أولاً: الدليل الواضح القريب من الفهم والإقناع الذي ينتفع به الجميع:

الشافعي رائد في مجال الاستدلال وواضع لأصول الفهم والمناقشة، أوضح تلك القواعد والأسس في كتابه الرسالة والتزم بها في مناقشاته ومجادلاته لخصومه المخالفين له في الرأي والأسلوب؛ فلم تكن طريقته على منهج المعتزلة والقدرية والخوارج وأهل البدع، بل له شخصيته المتميزة ومنهجيته الواضحة وطريقته الصحيحة التي تسلك طريق الحق وترشد إليه، وفق أسلوب بسيط وقريب من النفوس والقلوب، ولذلك أمثلة كثيرة تذكر في كتب الفضائل والتاريخ منها: أنه سئل عن أدلة التوحيد فقال: اختلاف الأصوات والصور، وهو دليل واضح مأخوذ من قوله تعالى[17]: (واختلاف ألسنتكم وألوانكم) (الروم: الآية 22)، فالدليل الذي أشار إليه الشافعي في غاية الوضوح وهو مأخوذ من الآيات القرآنية التي خاطبت الناس جميعاً ودللت على التوحيد بأسلوب يفهمه العالم والعامي، وهي سمة أساسية للأدلة القرآنية أبرزها الغزالي من بعده عندما قارن بين الأدلة القرآنية وأدلة المتكلمين فقال في إلجام العوام: فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلِّمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس، ويستضرُّ به الأكثرون؛ بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوي، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى ولا ينتفع بها الصبيان[18]، فأدلة الشافعي واضحة وهي خالية من المآخذ التي أخذها على الأدلة الكلامية التقليدية، فهو ينقد أدلة أهل البدع ويقدم بديلاً عنها، وهذا يؤكد لنا أن نقده الشديد لأدلة الكلام واستدلالات المتكلمين يراد منه أدلة أهل البدع؛ لذلك قال البيهقي مبيناً مراد الشافعي من ذمّ الكلام: إنما أراد رحمه

16 البيهقي : مناقب الشافعي ص 457.

17 راجع: مناقب الإمام الشافعي للرازي ص 102.

18 الغزالي: إلجام العوام 35.

الله بهذا الكلام حفصاً وأمثاله من أهل البدع وهذا مراده بكل ما حكي عنه في ذمِّ الكلام وذمِّ أهله[19].

ثانياً: أن يستند الدليل إلى أصل شرعي:

كان الشافعي يكرهُ الكلامَ في مسائل العقيدة بطريقة تقللُ من أهمية الدليل الشرعي أو تبعده عن دائرة الاستدلال استغناء بمنطق اليونان وفلسفتهم، ويدل على ذلك ما رواه البيهقي قال: حدثني محمد بن إسماعيل قال سمعت الحسين بن علي يقول قال الشافعي: « كلُّ متكلم على الكتاب والسنة فهو الحدُّ الذي يجب، وكل متكلِّم على غير أصل ولا سنة فهو هذيان « [20] ، قال المزني: كان مذهب الشافعي مبنيًّا على كراهية الخوض في الكلام، وقد صرح السيُّوطي بالعلةِ التي استند إليها الشافعي في ترك الدليل الكلامي بقوله: لم يرد الأمر به في كتاب ولا سنة ولا وجد عن السلف البحث فيه[21]، وفي رد الشافعي على بشر المريسي قال له: أخبرني عما تدعو إليه ؟ أكتاب ناطق وفرض مفترض وسنة قائمة ووجدت عن السلف البحث فيه والسؤال؟، فقال بشر: لا، إلا أنه لا يسعنا خلافه، فقال الشافعي: أقررت بنفسك على الخطأ، وأين أنت من الكلام في الفقه والأخبار، فلما خرج قال الشافعي لا يفلح[22]، فالشافعي لتعظيمه للأدلة الشرعية واهتمامه بشأنها يريد أن يشتغل بكل ما له صلة بها ولا يريد أن يخوض في مسائل كلامية قد تضطره إلى مجاراة أهل الكلام في طريقتهم واستدلالاتهم فهو حريص على أن يتميز عنهم بمنهجية في الاستدلال وأسلوب يرد على جملة أساليبهم، وعندما سأله رجل عن مسألة في الكلام قال: إنَّ هذا يدعو إلى الكلام ونحن لا نجيب في شيء من الكلام»[23] ، أي لا نجيب عن أشياء ليس لها دليل صحيح من قرآن وسنة صراحة أو استنباطاً، وذلك يكشف عن سمة من سمات منهجه ، لأنه لا يريد أن يخوض في أساليبهم الجدلية التي تؤدي إلى المنازعة أو التكفير مع تمام قدرته وتكامل استعداداته العلمية فهو لا يقبل أن يدخل إلى دائرة الاستدلال عند المخالف- كما هو موقف الإمام أحمد من المعتزلة في قضية القول بخلق القرآن- وإذا كانت هناك مصلحة في إيراد دليل أورد شبهة اختار من الأدلة أقواها وأقربها إلى القرآن والسنة، فينتقل من دائرة التأثر إلى دائرة التأثير ومن حيز التقليد إلى حيز الإبداع والتأصيل.

ثالثاً: تحرير الدليل بصيغة صحيحة وغاية شريفة:

تقدم سؤال في مقدمة البحث عن موقف الشافعي من الدليل الكلامي، هل هو منتقد بجملته أم من جهة خاصة تتعلق في صياغته، ونجيب عن ذلك بأنَّ الشافعي يرى أنَّ العيب ليس

19 البيهقي : مناقب الشافعي ص 454 .

20 البيهقي : مناقب الشافعي ص 470، رواته ثقات فالحسين بن علي بن يزيد الكرابيسي صاحب الشافعي وهو صدوق فاضل من الطبقة الحادية عشرة ت 246 ، ومحمد بن إسماعيل ثقة من رواة النسائي وهو من الطبقة الثانية عشرة (تقريب التهذيب ص 761، 864).

21 راجع: السيوطي: صون المنطق والكلام ص 30.

22 راجع: السابق: الصفحة نفسها.

23 راجع: السيوطي: صون المنطق والكلام ص 66.

في الدليل الكلامي نفسه؛ بل في طريقة صياغته والغاية من استخدامه، فهو وسيلة لغاية، فإذا كانت الغاية من علم الكلام إزالة الشبهات فالدليل الكلامي لا بدَّ أن يحمل هذه الصفة وإلا كان دليلاً يثير الشبهات، وإذا صيغ الدليل الكلامي صياغة صحيحة تقنع المخالف وتزيل الشبهة وتبدد الشكوك فهو دليل مقبول عند الشافعي، وقد استعمل الشافعي أدلة كلامية كثيرة، فمهمةُ الدليل الكلامي حراسةُ العقيدة وحفظها من تشويش المبتدعة بأنواع الجدل، وهي غاية شريفة إلا أن كثيراً من المتكلمين بالغوا في الجدل وصاغوا أدلتهم بأسلوب يثير من الإشكالات أكثر مما يحقق الطمأنينة لنفس الإنسان؛ لذلك حذَّر الشافعي من تلك الأدلة وأكَّد على حسن الصياغةِ وبعدها عن الجدلِ الممل، وقد رأينا له كلمات قليلة تجمع معاني كثيرة منها:

- ذكر الشافعي في مقدمة الرسالة كلمة جامعة في الصفات الإلهية فقال: « ولا يبلغ الواصفون كنه عظمته الذي هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه»[24] ، وهي كلمة جامعة لكل ما قاله أهل السنة في إثبات صفات الله تعالى وتنزيهه عن النقائص، قال الرازي: « وهذا القدر وإن كان كلاماً قليلاً إلا أنه كاف في الغرض»[25].

- عندما سأل بشرٌ المريسي الشافعيَّ: ما الدليل على نبوة محمد قال: «القرآن المنزل وإجماع الناس والآيات التي لا تليق بأحد غيره» قال الرازي: ذكر الإمام الشافعي رضي الله عنه في هذه الكلمات القليلة أكثر مما ذكره المتكلمون في الكتب الطويلة وهذا يدل على أنه كان متقناً في علم الأصول[26]

فالشافعي حريص على الخوض في المسائل النافعة والأدلة الصحيحة لذلك نأى بنفسه عن تحرير الأدلة الكلامية مع تمكنه من ذلك وقال مؤكداً على ذلك : « لو أردت أن أضع على كل مخالف كتاباً كبيراً لفعلت ولكن ليس الكلام من شأني ولا أحب أن ينسب إلي منه»[27]، لذلك اشتغل بالرسالة في أصول الفقه وأدلة الفقهاء ووضع ضوابط لفهم القرآن فكتب في العام الذي يراد به العام ويدخله الخصوص، وعام الظاهر ويجمع العام والخاص، والعام الظاهر الذي يراد به الخاص، والعام الذي تخصصه السنة[28]، وكلها مباحث في فهم أدلة القرآن والسنة، تعين في فهم الأدلة والتوفيق بينها، فمن المعلوم أن كثيراً من الخلافات الكلامية كانت ترجع لعدم الاسترشاد بهذه القواعد.

رابعاً: الالتزام بقواعد اللغة العربية والبعد عن الصياغة المنطقية الأرسطية أو التعسف في التأويل:

اهتمَّ الشافعي في كتابه الرسالة وفي سائر كتبه بقانون العربية وأكد على أهميته في فهم

---

24 راجع: الرسالة ص 8 .

25 مناقب الإمام الشافعي ص 108.

26 مناقب الإمام الشافعي ص 107.

27 راجع: السيوطي: صون المنطق والكلام ص 66.

28 راجع: الشافعي: الرسالة ص53-64 وما بعدها.

الآيات [29]، فقال في الرسالة: « وإنما بدأت بما وصفت من أنّ القرآن نزل بلسان العرب دون غيره، لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه وجماع معانيه وتفرقها، ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها ، فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه[30]، فهو وإن لم يشر في كتابه الرسالة صراحة إلى مخالفات المتكلمين وجهلهم باللغة العربية، إلا أنه ضمن كلامه إشارات ذات دلالة واضحة على أنهم يدخلون في عموم كلامه، ففي قوله» ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها» إشارة إلى تخبطات المخالفين وجهلهم بلغة العرب ودخول الشبه عليهم، فمعرفة قانون اللغة العربية أساس في فهم الأدلة وصحة مقدماتها وصدق نتائجها لذلك جعل أبرز أسباب الاختلاف الجهل بلغة العرب، ومن ثم الأخذ بلغة أرسطو فقال: « ما جهل الناس واختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس»[31] وهو بذلك يشير إلى أصل الخلافات الكلامية وأصل ظهور البدع التي نتجت عن التعسف في تأويل النص الشرعي وصياغة الدليل صياغة لا تراعي قواعد اللغة العربية وإنما تستند إلى المنطق الأرسطي [32]، فجهل المتكلمين باللغة العربية والبلاغة الموضوعة وما فيها من المعاني والبيان والبديع الجامع حملهم على رد الأدلة الشرعية وإنكار دلالاتها الواضحة، وهو فهم تشهد له مخالفات المعتزلة ومناقشاتهم حول مسألة رؤية الله تعالى وغيرها من المسائل الكلامية التي خالفوا فيها أهل السنة[33].

خامساً: التسليم للدليل الشرعي والاستنباط منه:

هناك مسلمة في منهج الشافعي وهو أنه لا يقدم على الأدلة الشرعية أي دليل ولا يترك نصاً صريحاً في القرآن والسنة، وقد كان حريصاً على رد أدلة المخالفين وإبطال حججهم بأدلة من القرآن والسنة، وأمثلة ذلك كثيرة منها:

- ذكر الرازي عن سعيد بن أسد قال قلت للشافعي: ما تقول في حديث الرؤية؟ فقال لي: يا ابن أسد اقض عليَّ سواء كنت حياً أو ميتاً : إن كل حديث يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإني أقول به وإن لم يبلغني»[34] .

- قال للحميدي: لا تحتج على أهل الإرجاء بآية إلا قوله تعالى: (وما أمروا إلا ليعبدوا

---

29 راجع كلامه في: إبطال الاستحسان 129/15 (من موسوعة الإمام الشافعي).

30 راجع: الشافعي: الرسالة ص 50.

31 نقله عنه: السيوطي في: صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام ص 15، نشره وعلق عليه علي سامي النشار، مطبعة السعادة- مصر، الطبعة الأولى، ص 15.

32 السيوطي : صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام ص 15.

33 راجع أمثلة ذلك في كتاب المغني للقاضي عبد الجبار، تحقيق الدكتور محمد مصطفى حلمي، وأبو الوفا التفتازاني، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، 4/225-231، وكتاب شرح الأصول الخمسة لابن أبي هاشم أحمد بن الحسين ، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان، الطبعة الثالثة 6991 الناشر مكتبة وهبة بمصر، ص 233-274.

34 مناقب الإمام الشافعي ص 111 .

الله مخلصين له الدين) (البينة: الآية 5)[35].

- وفي كلامه عن إثبات الرؤية لله تعالى قال: لما حجب الكفار في السخط دل على أنَّ الأولياء يرونه في الرضا» ودليله في ذلك قوله تعالى: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) (المطففين: الآية 51)[36]، وهو فهم صحيح للقرآن واستنباط دقيق.

سادساً: الاعتناء بصياغة الدليل في موضع الحاجة لردِّ شبهةٍ أو إلزامِ مبتدعٍ:

يرى الشافعي أنَّ أصحاب الفِطر السليمة لا يحتاجون لتلك الأدلة والصيغ التي تكلم عنها المتكلمون والفلاسفة المسلمون وغيرهم، أما من انحرفت فطرته ومن علقت به شبهة تشكِّكه في عقيدته وتزلزل عليه طمأنينته، فتُساق له الأدلة والبراهين لإزالة الشبهة وإعادة الطمأنينة إليه، على أن تكون تلك الأدلة صحيحة وواضحة؛ لذلك نجد أنه انبرى للردَّ على المبتدعة وبين ضعف مذاهبهم ، وقد حكى أبو منصور البغدادي أنَّ الشافعي أول من صنف في الرد على البراهمة المنكرين للنبوة[37]، كما تقدم الكلام أنه كان يحاور حفصاً الفرد في مسائل نعدّها الآن من أدقّ مسائل الكلام، كالجدل حول القرآن: أمخلوق، أم غير مخلوق ؟ كما كان يجادل حول زيادة الإيمان ونقصانه، ويرد على شبه القدرية والمرجئة، وردَّ على بشر المريسي، وذكرَ عدَّة أدلةٍ على أنَّ الأعمالَ من الإيمان، وأنَّ الإيمانَ يزيد وينقص، وكل ذلك مذكور في كتب المناقب التي أفردت للحديث عن الشافعي [38]، وقد استخلصَ الرازي من مجمل كلام الشافعي حول خلق الأعمال ستّ حججٍ[39] وتدل على أنه كان صاحب حجة وبرهان واستنباط دقيق من الأدلة وأنَّ تلك الحجج تكشف عن موقفه من المبتدعة وقدرته على صياغة الدليل المعارض والمبطل لأدلة المخالفين لمنهج أهل السنة، إلا أن صياغته للدليل متميزة فقد خلص الدليل الكلامي من مؤثرات عدة كالمنطق الأرسطي والمنهج الجدلي العقيم .

الخاتمة

بعد أن تناولت في بحثي منزلة الدليل الكلامي عند الشافعي يمكن أن أسجل أهم النتائج التي خلص إليها البحث:

- تناول الشافعي أدلة المتكلمين المعاصرين له بالنقد المتعلق بالشكل والمضمون، وقدم نماذج تطبيقية للدليل الصحيح من خلال معارضة المخالفين والرد على أدلتهم، وإبراز مواضع الخلل في صياغتهم للدليل الكلامي.
- حذَّر الشافعي من علم الكلام وأدلة المتكلمين التي استعملها المبتدعة، لأنها الأداة

35 راجع: مناقب الإمام الشافعي ص 122.
36 راجع: السابق ص 111.
37 راجع: السابق ص 121 .
38 البيهقي : مناقب الشافعي ص 387،408،453،456،457. مناقب الإمام الشافعي للرازي ص 112-124.
39 راجع: مناقب الإمام الشافعي للرازي ص 112-120.

التي يستعملها أهل البدع –غالباً- في نقد الأدلة الشرعية وتوهين مكانتها، فنقد الدليل الشرعي قد يحمل صاحبه على الكفر والاعتقادات الباطلة.

- يرى الشافعي أنَّ أدلة القرآن والسنة هي أوضح الأدلة وأقواها، وأنَّ المتكلم الذي يسعى لتحرير الدليل الكلامي يترك الدليل القوي إلى الدليل الضعيف والدليل القريب إلى الدليل البعيد.
- يرى الشافعي أنَّ الدليل الكلامي له مفاسد كثيرة منها أن المتكلم قد لا يسعى إلى غاية بل هو مبني على الجدل والمراء وحب التغلب، بالإضافة إلى أمر خطير نبه عليه في وهو أن الدليل الكلامي يحمل كل خصم على رمي خصمه بالكفر والضلال، ويحمل المتكلم على الطعن في إيمان عوام الناس ومن لا يحسنون الصياغة الكلامية.
- هناك مسلمة في منهج الشافعي وهو أنه لا يقدم على الأدلة الشرعية أي دليل ولا يترك نصاً صريحاً في القرآن والسنة، وقد كان حريصاً على رد أدلة المخالفين وإبطال حججهم بأدلة من القرآن والسنة.
- قدَّم لنا الشافعي نماذج تطبيقية للدليل الكلامي كما يريده هو وفق صياغة لها أصولها وضوابطها مما يجعلها قريبة من الفهم والإقناع، ولها صلة بالأدلة الفقهية والأصولية التي أسهم إسهامات كبيرة في وضع أصولها، وقد ساعده على ذلك ما يمتلكه من قدرة على البيان والاحتجاج.

المصادر والمراجع:

ابن أبى حاتم الرازي: آداب الشافعي، تحقيق : عبد الغني عبد الخالق ، مكتبة التراث الإسلامي، حلب ، سوريا د.ت .

ابن أبي هاشم أحمد بن الحسين: شرح الأصول الخمسة، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان، الطبعة الثالثة 1996 ، الناشر مكتبة وهبة بمصر.

البيهقي: مناقب الشافعي . تحقيق : أحمد صقر : دار النصر للطباعة ، القاهرة ، الطبعة الأولى 1391هـ ، 1971.

الرازي(فخر الدين ت 606ه): مناقب الشافعي ، تحقيق : الدكتور /أحمد حجازى السقا ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى 1413هـ1993-م.

السيوطي: صون المنطق والكلام ، مطبعة السعادة ، بجوار محافظة مصر ، الطبعة الأولى، د.ت.

الشافعي: الرسالة، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، دار الكتب العلمية.

الشافعي: إبطال الاستحسان (من موسوعة الإمام الشافعي)، دار قتيبة- دمشق، الطبعة الثانية 2003م.

الدكتور عبد الحميد مدكور والدكتور السيد رزق الحجر : دراسات في علم الكلام (بالاشتراك) الناشر: دار الثقافة العربية، مصر 1999م.
عبد الغني الدقر: الإمام الشافعي ، دار القلم-دمشق ، الطبعة السابعة 2005م.
العسقلاني(ابن حجر): تقريب التهذيب، تحقيق الشيخ محمد عوامة ، دار الرشيد- سوريا، الطبعة الرابعة 1997م.
الغزالي(محمد بن محمد ت 505ه) :إلجام العوام عن علم الكلام، المكتبة الأزهرية للتراث بمصر 1998م.
الغزالي: فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، دار الحكمة – دمشق الطبعة الأولى 1996م.
للقاضي عبد الجبار: المغني، تحقيق الدكتور محمد مصطفى حلمي، وأبو الوفا التفتازاني، المؤسسة المصرية العامة للتأليف.
ابن كثير: البداية والنهاية ، تحقيق: د.أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث- القاهرة 2002م.
اللالكائي: أصول اعتقاد أهل السنة ، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان ، دار طيبة للنشر والتوزيع.

SEÇİLMİŞ

İmam Şafiî, *er-Risale*, (tahk. Ahmed Şakir), yy. tsz.
_____, *İbtalu'l-İstihsân*, 2, Baskı, Dımaşk 2003.
Gazzâlî, *İlcamü'l-Avam an İlmi'l-Kelâm,* Mısır 1998.
İbn Kesir, *Bidayetü'l-Müctehid*, tahk. Ahmed Said Hamdan, yy. tsz.
Kâdî Abdülcebbâr, *Muğnî fî Ebvabi't-Tevhîd ve'l-Adl,* Kahire tsz.
Türkmen, Hasan, ''Hüsâmüddîn es-Siğnâkî'nin 'et-Tesdîd fî Şerhi't-Temhîd' İsimli Eseri Bağlamında Kelâmullahın Mahiyetine Yönelik Yaklaşımı'', *The Journal of Academic Social Science*, sy. 5/44, 2017.